

الفلسفة وخطاب النهايات

د. موسى عبد الله

جامعة سعيدة

الملخص:

لقد شهدت البشرية في النصف الأخير من القرن العشرين، نهاية حقبة هامة، امتدت قرابة قرنين من الزمان، إنها حقبة الثورات والتحوُّلات الكبرى، سواء على مستوى التوجُّهات الجديدة، التي عرفتها المجتمعات البشرية في مجال اختيار مصائرهما، أو على مستوى سيرورة الفكر وتقدم العلوم والمعارف والتكنولوجيات. وحصيلة هذه العوامل متضافرة، فرضت على الفكر الإنساني المعاصر، ضرورة إعادة النظر، في كثير من قيمه الأخلاقية والسياسية، التي سادت حتَّى الآن. منها مجموعة من التساؤلات، عن ملامح الفكر الفلسفي، وعن السمات العامة، للجدال الدائر حالياً، بين الفلسفة والأخلاق، وحول موضوع مظاهر التقدم العلمي المعاصر، وانعكاساته على الإنسان، وعلى الثقافة، وعلى القيم. إنها ظروف وشروط جديدة تعاظمت فيها سلطة العلم والعلماء، وهوت فيها سلطة الحقائق التقليدية والقيم المطلقة.

فهل بإمكان الفكر الفلسفي والفلسفة تحديداً، أن تستعيد اليوم دورها التنويري وتقوم بدور مماثل لذلك الذي قامت به في عصر التنوير؟. إزاء المشكلات العميقة التي تواجه البشرية؟ علماً، أن الفلسفة آتيا لم تعد تصبو إلى القول في كل شيء كما كانت في السابق. خاصة مع ازدياد الحاجة للتخصص، وقبل ذلك تعدد المناهج العلمية بتعدد الظواهر والخروج عن التأمل العقلي إلى نوع من البحث التجريبي المقنن والدقيق. لقد استقل البحث البيولوجي والفيزيائي والنفسي والرياضي والاجتماعي.. يبدو أن دورها انحصر في التأريخ لمباحثها التي عُرفت بها. أمام صعود العلوم والدين والأيدولوجيا التي راحت

تطرح نفسها بدائل للفلسفة في المعرفة والتصور والتغيير، كما في التصدي لإشكالات الكون والمجتمع والمصير.

لقد حققت الفلسفة انتصارات عظيمة خلال أوائل القرن العشرين وأواسطه، من خلال التقدم الباهر للفلسفات الوضعية والعقلانية والوجودية... حيث أثبت الفكر الفلسفي عبر تاريخه المديد حيوية وقدرة على بناء تصورات شاملة للوجود الإنساني وحدود المعرفة الإنسانية، والوقوف على منطق التحول والتطور والضرورة في التاريخ، ورصد الثابت والمتحول في واقع الأفراد والجماعات، كما في توجهات العلوم وحدود قدراتها واكتشافاتها. كما استطاعت الإيديولوجية الماركسية أن تتحول إلى دليل لحركات سياسية واجتماعية بدلت العالم لحقبة من الزمن وتركت آثارها في أكثر من مجال من مجالات النشاط الإنساني فكراً وممارسة... إلا أن قدر الفكر الفلسفي اليوم اختزل في سؤال النهايات وخطاباتها، وكأن قدره أصبح محصوراً دائماً في مواجهة الأبواب الموصدة والأسئلة المستحيلة.

على اعتبار، أن الإنسان قد أخفق حتى الآن في إقامة علاقة عقلانية ومتوازنة، سواء بينه وبين جنسه أو بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين المستقبل، إنه تناقض حاد ذلك الذي يشعر به الفيلسوف، إذ هو من جهة لا يستطيع التخلي عن الإيمان بإمكانية وجود فلسفة كونية، أي لا يستطيع التخلي عن مهمته كموظف للإنسانية. ولكنه يشعر من جهة أخرى بأن هذه القناعة لا تصمد طويلاً خارج دائرة الفلاسفة. لقد أصبح الشك سائداً وقائماً في قيمة وإمكانية وجود فلسفة كونية. إنها مسؤولية مزدوجة تعترض سبيل الفيلسوف، فلا هو بالكاشف عن حقيقة وجوده كفيلسوف، ولا بالكاشف عن "الوجود الحق للإنسانية"...

وباختصار شديد، ما مستقبل الفلسفة؟.

لقد شهدت البشرية في النصف الأخير من القرن العشرين، نهاية حقبة هامة، امتدت قرابة قرنين من الزمان، إنها حقبة الثورات والتحوّلات الكبرى، سواء على مستوى التوجّهات الجديدة، التي عرفتتها المجتمعات البشرية في مجال اختيار مصائرهما، أو على مستوى سيرورة الفكر وتقدم العلوم والمعارف والتكنولوجيات. وحصيلة هذه العوامل متضافرة، فرضت على الفكر الإنساني المعاصر، ضرورة إعادة النظر، في كثير من قيمه الأخلاقية والسياسية، التي سادت حتى الآن. منها

مجموعة من التساؤلات، عن ملامح الفكر الفلسفي، وعن السمات العامة، للجدال الدائر حالياً، بين الفلسفة والأخلاق، وحول موضوع مظاهر التقدم العلمي المعاصر، وانعكاساته على الإنسان، وعلى الثقافة، وعلى القيم. إنها ظروف وشروط جديدة تعاظمت فيها سلطة العلم والعلماء، وهوت فيها سلطة الحقائق التقليدية والقيم المطلقة...

فهل بإمكان الفكر الفلسفي والفلسفة تحديداً، أن تستعيد اليوم دورها التنويري وتقوم بدور مماثل لذلك الذي قامت به في عصر التنوير؟ إزاء المشكلات العميقة التي تواجه البشرية؟ علماء، أن الفلسفة آنياً لم تعد تصبو إلى القول في كل شيء كما كانت في السابق. خاصة مع ازدياد الحاجة للتخصص، وقبل ذلك تعدد المناهج العلمية بتعدد الظواهر والخروج عن التأمل العقلي إلى نوع من البحث التجريبي المقنن والدقيق. لقد استقل البحث البيولوجي والفيزيائي والنفسي والرياضي والاجتماعي... يبدو أن دورها انحصر في التأريخ لمباحثها التي عُرفت بها. أمام صعود العلوم والدين والأيدولوجيا التي راحت تطرح نفسها بدائل للفلسفة في المعرفة والتصور والتغيير، كما في التصدي لإشكالات الكون والمجتمع والمصير.

إن التحولات العالمية الراهنة على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية تشكل تحدياً راهناً للفكر الفلسفي وتصدمه من جديد بأسئلة لا يملك خياراً في التنحي إزاءها أو التنصل من التفكير في أجوبة تتلاءم مع حجمها والتهديد الذي ترتبه على مستقبل الإنسان وشكل تعامله مع نفسه ومع المجتمع ومع الطبيعة. فثمة عالم جديد يتسم بحركة متسارعة تصل إلى حد الانقلاب في الأعراف والمفاهيم والتصورات السائدة. فهل يمكن أن يبقى الفكر الفلسفي غائباً إزاء هذه التغيرات متعالياً على الواقع وتحولاته، مكتفياً بما أبدعه عبر تاريخه من تصورات عقلانية وما أنجز من مفاهيم كلية ونظرية؟

لقد أقلعت الفلسفة اليوم عن ادعاءاتها المعرفية التي لازمتها طوال تاريخها. فالحكمة لم تعد مثالا أعلى للفيلسوف، لأن الفلسفة ذاتها فقدت من موضوعها في التوصل إلى حكمة خالدة. لقد اغتربت عن مجتمعاتها، كما اغتربت هذه المجتمعات عنها. بل وانفصلت حتى في علاقتها مع المؤسسة (السياسية أو النخبوية) لم تعد إلا

جزء من الترف الأكاديمي الذي يستكمل به "البريستيج" الثقافي، أو مجرد خطاب محصور بين الجدران الجامعية في أحسن الأحوال... فلا خطر منها ولا أثر لها. ولعل السبب الأعمق هو الاعتقاد بعجزها عن التأثير في مجرى الأحداث العامة والرأي العام، أو الحياة الخاصة للمواطنين المشغولين عنها بمهمهم الخاصة والعامة... وإلا ما مصير الأسئلة المطروحة على الفكر الفلسفي في المرحلة الراهنة؟ كسؤال غائبة العلم، فهل سيقود التطور العلمي الراهن إلى سعادة الإنسانية ورفاهها أم على العكس من ذلك؟ وسؤال الطبيعة، فهل سيغير الإنسان المعاصر نظرتة إليها باعتبارها امتداداً لوجوده الإنساني، أم هي عالم غريب عنه قابلاً للتحكم به من دون أية ضوابط...؟ وكذا سؤال المعنى والقيمة، أي أفق يجري نحوه تطور الإنسانية وتقدمها؟ هل هو الإنسان الفرد بالمفهوم الليبرالي باعتباره القيمة الأولى والأخيرة والهدف النهائي للتطور أم هو المجتمع أم الأمة أم الإنسانية بأسرها؟ وهل الصراع والقوة هما اللذان سيحددان المصير الإنساني أم التكافل الاجتماعي والهم المشترك؟ ومنها سؤال الهوية فهل سيتجه التطور الإنساني نحو هوية كونية أممية أم سيكون التشتت بالهويات القومية والإثنية والطائفية هو الرد المضاد على ثورة التواصل العولمي؟...

إنه سؤال حرج، خاصة ذلك الذي يتعلق بنهاية الفلسفة... ويتوافق في الآن مع حديث النهايات في كل اتجاه: نهاية التاريخ، نهاية الأيديولوجيا، نهاية المثقف، نهاية الداعية، وغيرها من النهايات التي تشير إلى أن ثمة تحولاً في الفكر الإنساني قد حدث ويجب قراءة مفاعيله وأبعاده. ولم يكن غريباً أن يعيد الفيلسوف "جيل دولوز" طرح سؤاله الكبير من جديد: ما الفلسفة؟ ليذهب إلى أن مجال الفلسفة إنما هو «فن صياغة وإنشاء وصناعة المفاهيم». أو سؤال "جاك دريدا"، كيف يمكن فهم خطاب النهاية أو الخطاب حول النهاية؟ على اعتبار أن الخطاب حول النهاية، هو الخطاب الذي ينطلق من نهاية الفلسفة، لكي يؤسس خطاباً حول النهايات، وبالتالي يريد أن يؤسس خطاباً أبوكاليسياً بصدد العالم في الإشارة إلى (نموذج الخطابات السائدة حول نهاية التاريخ، نهاية الشيوعية...). أما خطاب النهاية في الفلسفة فهو يحيل على الأسس الفلسفية التي أسست لما يمكن تسميته بالقيامة الحديثة Apocalypse moderne (موت الله، موت الإنسان، نهاية الفلسفة) وقد وضع هذه الأسس فلاسفة أمثال: "ماركس، نيتشه، هايدغر..." الخ.

لقد تحدث "هايدغر" عن نهاية الفلسفة، ولكنه تحدث أيضا عن مهمة التفكير، إذ يتساءل عن شيئين متلازمين: بأي معنى نتحدث عن نهاية الفلسفة؟ وما هي المهمة المتبقية للفكر بعد نهاية الفلسفة؟ وبالتالي فنهاية الفلسفة، لا تتخذ عند "هايدغر" معنى بسيطا، أي "معنى محض سلبي، باعتباره يحيل على التوقف - توقف سيرورة - أي على التلف والعجز".

ليست النهاية توقفا لمسار الفلسفة ولا عجزا عن الاستمرار في المسير. فإذا كانت الفلسفة، تحديدا عند "هايدغر"، عبارة عن ميتافيزيقا تفكر في الوجود من خلال نظرها في الوجود، فعبارة "نهاية الفلسفة" تعني اكتمال الميتافيزيقا *parachèvement*، وليس كمالها *perfection*. بالإضافة إلى ذلك فكلمة النهاية تحيل - في الألمانية - على كلمة المكان، حيث تصبح نهاية الفلسفة هو ذلك المكان الذي يتجمع فيه كل تاريخها. فاكتمال الميتافيزيقا، تجعل الفلسفة تتخذ نهايتها وتحتل مكانها في عصر يشهد انتصار عالم تقنوي، تسود فيه نظرة علمية للإنسانية كما هي فاعلة في الوسط الاجتماعي. إن الإحالة الدلالية لكلمة النهاية على المكان هي التي تجعل لكلمة النهاية دلالة أخرى، ألا وهي وضع الحدود *limites*، فالأمر يتعلق لا بانتهاء الفلسفة ولكن بنهاية الفلسفة، عند تحوم وحدود معينة. ذلك أن فكرنا وتساؤلنا ليست سوى إسقاط لمشاريعنا ومتطلباتنا، نضعها أمامنا، لكي تمثلنا وتؤوينا وتحميننا، إننا نقف مشلولين في مكان ما أمام حدود مليئة بالعقبات، حيث لا نستطيع أن نضع ما يحميننا، إننا في مكان إحراجي معرضين فيه للفضح وللعري (Luc Ferry et Alain Renaut: 2001, 75).

إن نهاية الفلسفة، مكان الفلسفة، حدود الفلسفة يمكن أن تقرأ باعتبارها تحيل على مأزق في المشكل، في الحماية. أمام هذا الوضع الإحراجي حسب "دريدا" وبالتالي أمام اكتمال الفلسفة، حسب "هايدغر"، يصبح من مهام الفكر الفلسفي الاستعداد وليس التأسيس وهذا يعني أن على الفلسفة أن تتخلى عن النزعة النبوية، المتمثلة في التكهن بالمستقبل، لكي تنخرط في إيقاظ استعداد الإنسان من أجل عالم ممكن، غير واضح المعالم، وغير يقيني قدومه، ولكنه محتمل وممكن. لذا لاحظ Luc Ferry "أن الفكر المعاصر توقف عن أن يكون فكرا نسقيا ونبويا،

لكي يصبح عبارة عن فكر تأملي نقدي، وهذا ما يفقد الفلسفة جزءا من بريقها،
ألا وهو محبة الحكمة" (Luc Ferry et Alain Renaut: 2001, 77).

وبالتالي فالنزعة الإسكاتولوجية المدججة بخطاب النهايات، ليست سوى
نزوع نحو كلية منغلقة، ينتفي فيها التنوع ويبرز فيها التصدع والخلخلة، إن هذه
النظرة الإسكاتولوجية تفترض وجود حقيقة خالدة في العالم الآخر الجديد، الذي
يتأسس بعد القيامة، إنه عالم الخلود، حيث ينتهي الموت، ينتهي الفناء: إن هذا
العالم الخالد ليس شيئا آخر سوى عالم الليبرالية الجديد، عالم العولمة. كما أن
خطاب نهاية التاريخ، يتفنع من أجل إخفاء حقيقته كخطاب معاد للخلخلة
الماركسية، وللتاريخ الشامل. فالخطاب المهيمن، والذي يتلذذ بالحديث عن نهاية
المجتمعات المبنية على النموذج الماركسي، هو خطاب يبدو ظاهريا، منسجما، إلا
أنه خطاب دوغمائي، يسكنه الخوف من طيف الشيوعية، الذي يمكن دائما أن
يعود، بل يجب علينا أن لا نجعله يعود. لقد كان في الماضي، يشكل طيفا مقبلا؛
وفي الحاضر، يعتقد البعض أنه طيف مضى، وعلينا الاحتياط من رجوعه (علاء
طاهر، 2005: 192). لهذا ينبغي تحويل يوم القيامة، نعجل فيه بالإعلان عن النهاية،
عن الموت. إن هذه النزعة الإسكاتولوجية تريد أن تنتصر لحقيقة خالدة، ولعالم
غير فان. إن الأمر يتعلق بإيديولوجية رأسمالية ليبرالية جديدة منتصرة، ينظر إليها
كلحظة شمولية، كونية تبني على "التيارات مزعومة، هدفها التبشير بالديمقراطية
الليبرالية باعتبارها أصبحت المطمح الوحيد السياسي المنسجم، الذي يجمع مناطق
وثقافات مختلفة" (علاء طاهر، 2005: 192). لهذا صاغ "هايدغر" سؤالا متقدما،
له دلالة في وقتنا الراهن، حيث قال: "هل ستتحطم هذه الحضارة العالمية قريبا، أم
أنها ستعزز لمدة طويلة وذلك من خلال تغيير مستمر، يغدو فيه الجديد محتلا إلى
الأبد مكانة الجديد" (عمر مهيل، 2007: 270)، أي من خلال إغراق العالم في
فلك الخلود.

إن هذا العالم الجديد (بنظامه العالمي الجديد)، هو سعي نحو ترسيخ انسجام
يزعم أنه لم يسبق له مثيل، يعتمد في آلياته الكليانية على إعلان حرب ضد
الماركسية، لأنها الطيف، حسب "دريدا"، الذي يهدد كليته المغلقة، ويهدد
انسجامه. إن عولمة العالم، ليست كما يشيع لذلك خطاب العولمة، عبارة عن

سيرورة عادية، ومرحلة نهائية من مراحل التطور، بل هو في الأصل، نزعة كليانة تقوم أساسا على إسكاتولوجيا للأزمات ووضع حد للإيديولوجيات. على اعتبار إمكانية تكثيف هذه التحولات العالمية في عبارة صدمة التاريخ، هذه الصدمة التي يمكن تلمس تجلياتها على المستوى السياسي: حيث عملت الأحداث التي شهدتها العالم بعد الحرب العالمية الثانية (النازية والستالينية والليبرالية الجديدة) على وضع الفلسفة والفلاسفة موضع الضحايا، بما أنهم كانوا غير قادرين على منع حدوثها ولا التنبؤ بها، بل لم يكونوا على علم بها... بل وأن بعض الفلاسفة، كما أشار إلى ذلك Christian de La Campagne، كانوا متورطين فيها (إبراهيم محمود، 2007: 655).

وعليه، يمكن القول أن هاته الإسكاتولوجيا، التي ظهرت في صلب رحم الفلسفة، والتي تحدثت عن نهاية الفلسفة، كانت نتاجا لاهيار ما يمكن تسميته بالفلسفة الكونية، كما كانت مولدة لكف الفلسفة عن أن تكون وعدا تتمسح بمسحة نبوية حيث التكهن والتبشير بإنسانية محتملة، وداعية لإعادة النظر في ارتكان الفلسفة بالثورة. خاصة إثر اهيار الإمبراطورية السوفيتية، الذي بخر الآمال المعلقة على الثورة التاريخية المشيدة لعالم مثالي. مما جعل الفلاسفة يتخلون عن الرغبة في تغيير العالم، من أجل العودة إلى السعي نحو محاولة فهمه وتفسيره. إن صدمة التاريخ، هنا، تكمن في تحول الإنسان من منتج اجتماعي (تاريخي) إلى منتج بيولوجي، وتحويل وجهة التحكم من حقل التاريخ إلى حقل البيولوجيا.

ومع ذلك، ومن خلال التفكير في التساؤلات الآنية، هناك سؤال آخر بات يفرض نفسه: يخص الجدل، والحوار الجديد، بين الفلسفة والعلم والأخلاق، والذي أضحى حاليا، يشكل جسورا جديدة بين الثقافات والحضارات الإنسانية، فهل يُفِضي في نهاية المطاف، إلى عرقلة تطور البحوث العلمية، في ميادين علوم الصحة والحياة، وهي ميادين، يسعى المشتغلون بها، من حيث المبدأ على الأقل، إلى تحسين ظروف حياة الإنسان، والتخفيف من معاناته وآلامه؟ وهل يجب الحفاظ على روح التفاؤل، والاستمرار في الاعتقاد بأن تلك الإشكالات الأخلاقية عابرة... وأن العلم وهو يتقدم، يشق طرقا جديدة في مسيرة تحرر الإنسان، أكثر مما تفعله السياسة؟ (مصطفى قباح، 1990: 16).

فما مدى حضور وحدود تأثير الفلسفة في مجريات التحولات العالمية، ومدى تأثير التحولات العالمية في مسار الفلسفة؟ إن التداولات الجارية والمقتصرة أغلبها على مواقف نضالية... من مثل الدفاع عن الفلسفة، وضرورة الفلسفة، والحاجة إلى الفلسفة، وعن قيمة الفلسفة... إنها مواقف يتكرر طرحها بين الفينة والأخرى، وهي كثيرا ما تخفي (هاجسا قلقا وملحا) يتعلق بنهاية الفلسفة، وذلك في كل مرة يختفي فيها الموضوع الأصلي. مما يبعث على القول، إن الفلسفة والتحولات العالمية تتضمن فكرة نهاية الفلسفة.

الفلسفة والمهام الملحة:

لكن ورغم مأساوية الموقف... هناك ظاهرة ثقافية لافتة للنظر مع مطالع الألفية الثالثة. قوّت من حظوظ عودة جديدة للفكر الأخلاقي، وتصدّره لواجهة الفكر المعاصر، وأسهمت في خلق أشكال عديدة من الحوار والجدل بين الأخلاق والعلم. فإذا كان التقدم العلمي، في الطب، وعلوم الحياة، والهندسة الوراثية، يُنعشُ الآمال، في إمكانية تحسين حياة الإنسان وشروطها، فهو في الوقت ذاته، بات يخلق إشكالات أخلاقية جديدة، فريدة من نوعها في تاريخ البشر، ولا عهد للمجتمعات البشرية بها من قبل. كما أن انعكاساته تهدّد بزعة مبادئ وقيم أخلاقية...

يتساءل "هابرماس" في بداية كتاب "مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية" (يورغن هيرماس، 2006، 150). هل يحق للفلسفة أن تدافع عن التحفظ الذي تتخذه تجاه مسائل جوهرية تتعلق "بالحياة الصالحة" أو بما يجب على الإنسان عمله كي لا يفسد حياته؟ وهل يمكن للفلسفة أن تتخذ ذات التحفظ تجاه المسائل المطروحة في أخلاقيات النوع الإنساني (أو الجنس البشري؟). يطرح هابرماس هذا السؤال وهو يعي أن الفلسفة، خصوصا بعد الميتافيزيقيا، لم تعد تزعم أنها تقدم أجوبة لها قوة الإلزام عن أسئلة تتناول نخط الحياة الشخصية أو حتى الجماعية.

ولذا فإن السؤال الفلسفي الأصيل عن الحياة التي يجب أن تعاش، هو سؤال يستجدد من داخل خطاب النهايات على اعتبار أن التقنيات الجديدة ستفرض علينا نقاشا عاما يتناول الفهم الذي يجب تكوينه عن أشكال الحياة الثقافية بوصفها أشكالا ثقافية. وبالتالي، مما تركته "البيوتيقا" على الفكر الفلسفي، هو مساهمتها في

تحقيق حلم كان وما يزال يراود بعض الفلاسفة، وهو انتقال هذا الفكر من النخب والجامعات، إلى اهتمام الفئات العريضة للمجتمع. وبالفعل، تبلور الفكر الأخلاقي الجديد خارج الجامعة، ما دامت هذه الأخيرة تريد أن تكون الفلسفة نُخبوية وترفض أن تكون غير ذلك، ومن جهة أخرى، فإن الفكر البيوتقي، على خلاف الفكر الفلسفي السابق، لا يرتبط برموز معينة، ولا حتى بمجال معرفي معين، فكل التخصصات، بل وكل الفئات الاجتماعية تشارك في مناقشة القضايا البيوتقية، وليس الأطباء وحدهم ولا البيولوجيين وحدهم، بحيث أصبحت أخلاقيات الطب والبيولوجيا وما يرتبط بها من قضايا علمية وقانونية ودينية واقتصادية وفلسفية، همّا يحمله الجميع.

إذ نجد مساهمة الفكر البيوتقي في إبداع الكثير من المفاهيم الجديدة، فإلى جانب المفهوم المركزي وهو مفهوم البيوتقا نفسه، نجد مفاهيم أخرى مثل مفهوم البيو/قانون = Bio droit، وهو ما يعرف بـ: "الفكر القانوني الخاص بقضايا الطب والبيولوجيا والصحة". ومفهوم العلم التقني = Techno science. زيادة على إثراء مضامين بعض المفاهيم الأخلاقية الأساسية والمصطلحات القديمة، مثل مفهوم الحق والواجب والمسؤولية والإحسان، ومفاهيم أخرى ذات ارتباط بعلاقة الطبيب بالمريض مثل مفهوم الموت الرحيم والإنجاب الاصطناعي والتوالد الجنسي والجسدي ومفهوم تحسين النسل...، ويعتبر مفهوم "حقوق الإنسان" من أهم المفاهيم التي تم إغنائها في هذا الإطار، حيث توجه الاهتمام إلى مدى احترام هذه الحقوق في ميادين الطب والبيولوجيا والصحة، بالإضافة إلى حقوق الأجيال الإنسانية القادمة، وعلى رأسها حق الحفاظ على هويتها وتنوعها، هذا الحق الذي يتعرض حالياً للانتهاك، وخاصة في إطار التصرف في الجينات الحاصل في مجال الهندسة الوراثية وما يصاحب ذلك من تفكير في استنساخ الإنسان.

وإذن يتجلى الحضور الفعلي للفلسفة في الفكر البيوتقي من جهة أخرى، في تشكيلة اللجان الأخلاقية التي صاحبت نشأته وتطوره، يعد الفلاسفة من أبرز أعضاء هذه اللجان، وهكذا ظهرت شخصية علمية جديدة هي "عالم الأخلاق = L'éthicien" وهي شخصية علمية ترتبط بالأخلاق كفكر فلسفي وترفض الارتباط بها كفكر ديني، وإذا كانت الأخلاق فرعاً من فروع الفلسفة منذ

القديم، فإن التطور الأخلاقي الحالي يفرض علينا - رغم ذلك - أن نطرح السؤال التالي: هل ستبقى الأخلاق في وضعية التبعية للفلسفة أم أنها ستنفصل عنها كعلم جديد؟ خاصة وأن هناك مؤشرات قوية تدل على ذلك، أهمها التمييز الذي نجده حاليا في الدراسات الأخلاقية بين "Morale" و "Ethique" وتزايد استعمال المصطلح الثاني على حساب الأول، بالإضافة إلى حلول عالم الأخلاق محل فيلسوف الأخلاق.

وعمليا، إذا كانت التكنولوجيا الحيوية إحدى المظاهر الحاسمة للتقدم التقني الذي يشهده عصرنا، فإن ثمة سؤالا يفتح على أفق فلسفي لا يقل أهمية وقيمة عن السؤال الأخلاقي، وهو ذلك المتعلق بنمط العقلانية الموازية للتقدم التقني الذي تفتتحه الثورة البيوتقنية في أفق الألفية الثالثة؟ هذا السؤال يرتبط في وجه منه بصيرورة الكائن المعاصر من حيث هي صيرورة ترتسم في عالم يعيش تحت التأثير المباشر والعميق لقوة التقنية المرتبطة بمتطلبات الإنتاج الاقتصادي، لمنطق السوق الخالص كما تشهد على ذلك اتجاهات البحث اليوم في نطاق ما أصبح يعرف بالبيو-تكنولوجيات. إن تتويج هذا الارتباط، اقتضى ذلك الإسراع في اتخاذ إجراءات محلية ودولية للانتقال من الأخلاق إلى القانون وتحويل المبادئ الأخلاقية المتفق عليها إلى قواعد قانونية سارية المفعول (ناهدة البقصمي، 1993: 22).

في هذا الصدد بقي أن نشير إلى أن الفلسفة تدين للبيوتقيا بما أتاحه الفكر البيوتقي من مناقشة عميقة لقضايا فلسفية أصيلة ترتبط بالذات والشخص والحياة والموت والوجود والمصير والعلاقة مع الآخر... الخ، وذلك في وسط جميع الفئات الاجتماعية وليس وسط الاختصاصيين وحدهم. وبناء عليه، لم تعد الأخلاق مجرد قضايا معيارية مرتبطة بالضمير، بل أصبحت ضوابط اجتماعية وحتى دولية - ذات طابع إلزامي - تملك أحيانا قوة القانون، وذاك ما يقصده الباحثون حين يتكلمون عن: "الانتقال من الأخلاق إلى القانون" أي أن الأخلاق تم إخراجها من دائرة ضمائر الأفراد إلى دائرة المؤسسات الاجتماعية المختصة، وبذلك تم الانتقال من الأخلاق كقيم معيارية تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات، إلى قواعد أخلاقية متفق عليها عالميا، أو على الأقل متفق عليها من طرف النخب العاملة أو المثقفة في العالم، أو ما اصطلح على تسميته بـ: "لجان الحكماء" في العالم. إن اللجان

الأخلاقية تضعنا أمام فكر أخلاقي/قانوني جديد، ينحو نحو الصبغة العالمية، عالمية توازي عالمية حقوق الإنسان (Jacqueline Russ. 1995:65).

خاتمة

نخلص على ضوء ما قدمنا، إلى أن الفلسفة بمباحثها القديمة لا مستقبل لها، لكن الفلسفة بمعنى الحركة العقلية لفهم الأشياء، يمارسها العاقل كل لحظة، فلاقتصاد لا بد له من فلسفة، والتربية لا بد لها من فلسفة، وهكذا بقية جوانب الحياة، بل حركة الإنسان في محيطه ومجتمعه ووظيفته تنطلق من بعد فلسفي، الذي لا يتحرك بأي نظرة فلسفية هو غير العاقل، أو مقلد وحتى هذا المقلد يمارس فيها ضربا من الفلسفة.

إن الفلسفة ليست حرة في التخلف عن هذه الرؤية الفلسفية الجديدة للعالم، التي باتت تبشّرُ بها الحالة الراهنة لتطور العلوم والتكنولوجيا، والمعارف الإنسانية المعاصرة عموما، إن الفلسفة الآن في طور المخاض والتبلور. نتوقع أن تكون محاولاتها دعوبة لفهم واستيعاب التحولات الكبرى، ودلالات الإنجازات الهائلة للبحث العلمي، على الصعيد العالمي، وآثارها على أحوال الوضعية الإنسانية البشرية. وأنها ستفتح ربما على السياسية، أكثر مما فعلته في السابق، على الأقل على الموضوعات الجديدة التي أصبحت تطرح نفسها على الفكر الإنساني بإلحاح، ولعل أبرزها الآن، علاقة الأخلاق بالسياسة، ودلالة هذا الخطاب المتنامي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

إن الفلسفة في أي عصر ليست دينا ولا عقيدة بل هي مجرد طريقة في التفكير لذلك فإنها لا تستهدف أن تحل محل السائد ولكنها تتقدمه... لقد اعتبر "ألان باديو"، انتشار وتداول أطروحة نهاية الفلسفة أن الفلسفة لم تعد قادرة على تنظيم نفسها كوعد، إذ أصبحت تشعر بضعف تأثيرها مقارنة مع مجالات أخرى: فلا هي تنتج تغيير العالم كما يحدث في السياسة (...). ولا هي تنتج تقنيات، كما تفعل العلوم؛ ولا هي تثير إعجابا مشتركا بين الناس، كما يحدث ذلك في مجال الفن.

إن مهمة الفلسفة، بما هي مهمة نقدية اتجاه الحاضر، تسعى نحو فهم الذات، من أجل فهم الحاضر. تجعلنا نقرأ هذه التحولات العالمية التي تعيشها ذواتنا في

الحاضر، نقرأها بحس تاريخي - بالمعنى العام وليس بالمعنى الشامل المؤسس "للقيامة" (فردريك نيتشه، ب. س، 39).

إن مهمة الفلسفة، تتوخى هدم خطاب العولمة، بما هو مطمح يود جعل التحولات دالة على زمن العالم الذي نعيشه، زمن يجب أن نقرأ فيه كل التحولات باعتبارها ليست سوى تجليات لعالم يرسم قدر الحضارات ومصير الإنسانية مصيرا واحدا خالدا، كمرحلة نهاية من مراحل التطور. فالعالم الأفضل الأبدي الذي ينتظره الإنسان، حسب هذا المنظور، ليس هو النموذج الذي عاش فيه سابقا (المجتمع الإنساني ذو الدلالة الاشتراكية ولا حتى النموذج الرأسمالي سابقا) وهذا العالم الجديد، لا يمكن أن ننظر إليه وفق ثنائية الخير والشر، بل هو العالم المفروض وكفى، العالم الوحيد الذي يمكن أن نعيش ونتعايش فيه. إن مهمة الفلسفة تكمن في خلخلة وهدم هذا الفردوس الذي يزعم الخلود، فلا عودة للعالم المنتهي.

وما على الفلسفة الآن إلا أن تراجع طبيعتها ومفهومها وتعريفاتها التقليدية ومنهجها وأساليب رؤيتها إذا شاءت أن تصبح «حكمة عالمية» كما سماها "كانط"، أو «حكمة خالدة» كما وصفها "لينتز وياسبرز وهكسلي" وغيرهم. وهنا لا يقتصر الأمر على تغيير الوصف والتسمية، وإنما يتعداه إلى المهام الجديدة التي تلزمها اليوم أكثر من أي يوم مضى بأن تكون عالمية وإنسانية، وأن تتحول - على الأقل في المجالات المختصة بالقيم والغايات الأخلاقية والمثل والأحلام والأهداف المستقبلية التي يمكن الإجماع عليها - إلى حكمة مناضلة، تتسلح بأسلحة النقد والمقارنة لكل ما يعطل العقل ويغيب الوعي ويشوه الإنسانية...

كما عليها أخيرا أن تحافظ على حريتها لكي تستطيع الدفاع عن الحرية وإلا سقطت في الهاوية التي سقطت فيها فلسفات سيئة الحظ تبنتها سلطات إرهابية (كما حدث أخيرا للنظم الأيديولوجية المتحجرة والنظم الاستبدادية المتخلفة)... إن الفلسفة تعمل على الدوام في دائرة الممكن الذي يبدو أحيانا على صورة المستحيل. وفلسفة المستقبل العالمية والإنسانية هي أخطر تحد يواجه المشتغلين بها والمنتمين إليها. إنها من قبيل الخطاب الممكن.

الهوامش:

1. Luc Ferry et Alain Renault, *Heidegger et les Modernes*. Ed. Poche - 2001.
2. علاء طاهر: نهايات الفضاء الفلسفي: الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل، ط1، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، 2005.
4. عمر مهيل: من النسق إلى الذات: قراءات في الفكر الغربي المعاصر. - ط. 1. - بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم، 2007.
5. إبراهيم محمود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر - ط. 1. - اللاذقية، سوريا: دار الحوار، 2007.
6. هابرماس يورغن: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، المؤلف، ترجمة: د. جورج كُتوره، ط. 1. - بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية، 2006.
7. Jacqueline Russ: *La pensée éthique contemporaine*, Que sais-je? P.U.F, 1995.
8. ف. نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي والإغريقي. ترجمة: سهيل القش. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
9. مصطفى القباچ: تدريس الفلسفة والبحث الفلسفي في الوطن العربي (اجتماع الخبراء بمراكش يوليو 1987)، ط1، 1990، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10. ناهدة البقصي: الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، عدد 174، يونيو 1993.